الانتظـــار

للكاتبة الامريكية سنزى أورسونر

لقد أخبرها بأنه سيعود إلى الدار بعد انتهاء الحفلة قبيل منتصف الليل . ولكن الساعة الصغيرة القائمة على المنضدة كانت تشير إلى الواحدة صباحاً. إنه لم يسبق له أن تأخر مثل هذا التأخير تأخر وحيداً وبدونها .

ورقدت تحت الأغطية فى فراشها قلقة مضطربة . كانت مجهدة من العمل . وكانت كل حاسة فيها تصيح بها أن استريحى ولا تقلق كل هذا القلق على ولدك لقد بلغ السادسة عشرة . إنه الآن ليس طفلاً

وتذكرت ... لقد ذهبت مرة فى صباها إلى النزهة ولم تحضر إلا ليلا . وعندما عادت ورأت الستار القاتم على نافذة غرفة الجلوس ينسدل ارتبكت واضطربت . إن والدتها كانت تتطلع خلال النافذة تترقب عودتها فى قلق ولهفة . إنها لا تزال تذكر كلمات أمها وهى تقول لها « انتظرى يا عزيزتى وستشكريني فى يوم ما على شدتى نحوك » . ولكنها كانت فى سن السادسة عشرة ولم تكن لتعى معنى لهذه الكلمات ، ولا لما قالته والدتها بعد ذلك « أنها ليست كمسألة عدم الثقة بك ، ولكن كثيراً ما تقع الحوادث بين أطيب العائلات فى هذه الأيام »

ولا تدرى لماذا كانت تهيجها هذه النصائح عند بلوغها هذا السن الذى أدركت فيه الشعور بالحرية الشخصية . ذلك الوقت التى بدأت تخفى فيه بعض أسرارها ، وتشعر بأنها تخصها وحدها ، تخص عالمها التى تعتقد أنه ملك لها .

ولكن ... كانت والدتها تتدخل فى كل شؤنها ، فتفتح رسائلها قبل أن تعود من المدرسة . إنها لا تلومها على رقابتها ، ولكنها ليس لها حق فض رسائلها ، إن التدخل فيما يخصك فى هذا السن هو إهانة لا تغتفر ، ولا يصح أن يحدث ذلك لأولادك كل ما تستطيع عمله هو أن تراقب فقط ، وعند ما يكبرون ويقبلون على الزواج .

نعم ، لقد اكتمل نضجها وتزوجت ، ثم ترملت بعد عامين ، وها هو ذا ولدها قد غادره ووصل إلى أول مرحلة الشباب . إنها لم تفكر قط فى الاطلاع على رسائله كلا ، إنها لن تتهم بذلك الفعل ، ولكنها الآن راقدة فى فراشها مغمضة العينين ، وقد انسابت روحها تخترق ستار النافذة وتتساءل : لماذا لم يحضر ؟ وما الذى حدث له ؟ وعزمت على أن تسأل عنه فى المستشفيات وفى أقسام البوليس إذا لم يعد بعد نصف ساعة ... من يدرى ؟ فلعله راقد الآن فى غيبوبة ، أو ملقى فى حفرة وقد سلبت منه ساعته اليدوية التى أهدتها له فى عيد ميلاده الأخير والخمسة دولارات التى فى جيبه ، إن الكثير من الحوادث أحياناً ما يقع بين أطيب العائلات ! وطاف بفكرها خاطر مزعج ، إن على ولدها أن يعبر تلك الشوارع التى يختارها سائقو السيارات بعرباتهم غير مبالين بنظام المرور فى ذلك الوقت المتأخر من الليل ، وودت فى تلك اللحظة لو أنها كانت تعيش فى الريف بعيداً عن هذه السيارات .

وهبت واقفة وأقبلت على النافذة تتطلع إلى الشارع . يا إلهى ما هذا الضباب المخيم فى الخارج ؟ كان يتكاثف واستقر فى صمت وسكون . وتركت طرف الستارة ، ثم زحفت داخل الأغطية فى عصبية . وحاولت أن تسيطر على أعصابها ، وأغمضت عينيها . ولكن . . سرعان ما فتحتهما عند سماعها صوت أقدام تدب خفيفاً على إفريز الشارع . حمداً لله ها هو ذا قد قدم .

وترددت الخطوات ، ثم سمعت بابا يفتح . لم يكن باب شقتها بل كان باب جارها الكهل . ثم سمعت صوت سيارة الإسعاف فهبت من فراشها بقلب واجف ، كانت تسمع رنين جرس السيارة كأنه العويل ، وسرعان ما تلاشى الصوت تدريجياً واختفت السيارة .

وأقبلت على النافذة مرة أخرى وتطلعت ، وإذا بولدها قادم صوب المنزل ، يسير وقد انعكست عليه أنوار الشارع . نعم إنه هو ولا يمكنها أن تخطىء مشيته وحركاته . كانت ساقاه الطويلتان تخطران فى خطوات متسعة نحو الدار ، وكان يصفر لحناً شائعاً ، وكتفاه يتمايلان فى حرية وكأنه يقول : « إن هذا هو عالمى ... إننى رجل وهذه دنياى » . وشعرت بالغضب يعصف بها ، ثم بالحزن ينتابها ، كانت تود أن تشاركه ذلك الشعور بالحرية ، ولكن قلقها عليه حال بينها وبين ذلك . وتبين لها حقه فى السير ، لا فى

هذا الشارع الذى تحفه الأشجار فحسب ، بل فى الأزقة المظلمة والأماكن الأخرى ، بل حتى فى الأركان المظلمة من عقله . إن وجوده معها تحت سقف واحد لا يعطيها الحق فى امتلاكه امتلاكا كاملا . وليس لها حق مشاركته أفكاره إلا إذا اضطرتها الظروف اضطراراً . إن الرجل له حق العيش فى عالمه الخاص . وإذا سمت أفكاره حتى وصلت إلى الأشجار التى يسير تحتها وإذا ما جعلته يصفر مسروراً ، إذاً لوجب عليها أن تكون سعيدة من أجله . ومع ذلك ... كان فى استطاعته أن يخبرها تليفونياً . وعادت إلى فراشها وتنفست فى هدوء عندما أقبل ولدها ، وحياها فى مرح وهو واقف على عتبة غرفتها وقال « لقد ظننتك نائمة إن الساعة الآن حوالى الثانية » . كان يشوب صوته نبرات من الحماس . وتمطت ثم مسحت عينيها وتمتمت قائلة .

— يغلب على ظنى أنى نمت وتركت النور مضاءاً دون أن أطفأه . مساء الخير يا عزيزى . ثم مدت يدها لتطفىء النور . ولكن ولدها تقدم فى الغرفة ووقف أمام فراشها ينظر إليها ، ثم قال

— أظنك لم تسمعى ما قلته . إنها الآن الساعة الثانية صباحاً .

وتظاهرت بالدهشة ثم قالت — نعم إنها الثانية . حسناً .. ليلة طيبة يا بنى . ونظر إليها مستغرباً ثم قال — ألست عاتبة على ؟ ! فتشاءبت وقالت — ولماذا أعتب عليك ؟

— ولكنى قلت إنى سأعود قبيل منتصف الليل . إنى آسف إذا كنت قد أقلقتك . وأظن أن جدتى قد رفعت عقيرتها حتى السقف . إنه لافائدة من إخباره الآن أن جدته قد رحلت غاضبة بعد أن يأست من التحدث معها عن « طيشه وتأخره » فقالت — لم أكن قلقة على الأطلاق : — هذا حسن . كان يجب على أن أخاطبك تليفونياً ، ولكن ... ما الأمر ؟ ! هل الضوء قوى ؟ ! وأزلت عينيها عن موضع أحمر الشفاه الملطخ به خده وقالت فى بطء أجل ... إنه الضوء ... وضغطت على أداة إطفاء النور ، وغمر الليل الهادىء الغرفة . إنها لن تر أحمر الشفاه فى ذلك الضوء . كانت تعرف بأنه لو كان عنده ما يقوله لها هذه الليلة فأنها لا ترغب فى أن تفرض عليه القول فرضاً كأنه واجب يتحتم عليه أداءه . إنه ليكون أقل ارتباكا إذا ما اعتقد بأنها لم تلحظ هذه البقعه الحمراء . ولكنها كانت تشعر فى قرارة نفسها أن ما شاهدته لم يكن سوى نصف الحقيقة . وكانت غريزتها تهيب بها أنه يتحتم عليها أن تنتظر حتى يطلعها على النصف الآخر ، أو ... أو يفضى إليها بالأكذوبة التى تخشاها . فقالت : « هل كان هناك فتيات فى هذه الحفلة الليلة ؟ » . انساب ذلك السؤال منها دون أن تتمكن من كبحه ، وانتظرت فى لهفة الرد عليه ، وخيل إليها أنه أبطأ فى الرد كثيراً عندما قال : « كلا ... كلا » . ولم ينظر إلى عينيها عندما استمر يقول : « لم يكن هناك إلا رفقائى ... ولكن ... يوجد شىء آخر أود أن ... » فقاطعته قائلة وهى تحاول الاحتفاظ بهدوئها : ليس الآن يا عزيزى .. فى الصباح . فتمتم قائلا : حسناً ثم استدار وسار صوب الباب وأقفله وراءه فى هدوء ، وجلست فى فراشها متصلبة الجسم حزينة القلب ، لقد كذب عليها أولى أكاذيبه ، أكانت هى الأولى حقاً ؟ كم عدد الأكاذيب التى سبقت هذه الكذبة ؟ وشعرت برغبة جارفة تدفعها إلى القفز من الفراش لتواجهه بخديعته وتقول له : التفت إلى . ورفض قلبها أن يلفظ تشبثاً خلاف هذين اللفظين . التفت إلى ... ثم ماذا ؟ إنها تشعر بأنه لا فائدة من مواجهته ، إنه ليكفى أن تنظر إلى وجهه ، فيحدق إليها بطريقته المحبوبة ، وإذا بشىء ينغلق خلف تلك العينين الرماديتين .

إن خوفها كان أكثر من ألمها ، خوفها من أن تكون أمها على حق ، ربما كان ولدها فى حاجة إلى المزيد من الرقابة . وشعرت برجفة تسرى فى جسدها ، كان يجب عليها أن تواجه كل شىء دون مواربة . وسمعته يتحرك فى الحمام وهو ينظف أسنانه ويخلع حذاءه ، ثم سمعت الماء يجرى على جسده ، ووقع خطواته على الأرض ، ومسح جسمه بالمنشفة ، ثم خرير الماء المتساقط من الصنبور . كان له وقع غريب فى أذنيها كأنه صوت لحن موسيقى واستمر الماء يتساقط . ها هو الآن فى المطبخ يبحث عما يأكله كان يحاول ألا يحدث صوتاً حتى لا يقلق نومها . وانطفأ النور فى المطبخ ولما تزل جالسة فى فراشها ، ثم استمعت إلى وقع خطواته تتلمس طريقها فى الظلام وهو يسير فى البهو وفى غرفة الجلوس ، إن هذه الأصوات العادية كانت كأنها تجمع فى ذاتها سر الحياة ربما كانت غير عادلة نحوه ، يجب أن يكون هناك شرح مقبول لهذا الطلاء الأحمر ، واستمعت مرة أخرى إلى خرير الماء المتساقط وخيل إليها أن نغماته قد اختلفت عن ذى قبل . ومرت بيدها على وجهها ، لقد فشلت فى أداء مهمتها كأم ، إن والدتها على حق ، لو كانت قد تعهدت ابنها كما نصحتها لما كذب عليها الآن ، إنه لم ينو الذهاب بتاتاً إلى تلك الحفلة ، لقد حاول أن